المحاضرة الرابعة:

البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول

محاور المحاضرة:

1-تمهيد.

2-أساس النسق البلاغي.

3-التخييل والتداول في مسار البلاغة العربية.

4-التوجه الحجاجي المنطقي.

1-تمهيد:

شبه حازم القرطاجني من يظن إمكان تحصيل البلاغة والاستفادة منها في وقت وجيز، بحال الرجل الذي قضى ليلته في تصفح كتب الطب، ثم أصبح وهو يحرر وصفة طبية لإسعاف صديقه المريض، فعجّل بنهايته. إن بوسع إنسان ذكي –كما قال- أن يحصل بالاجتهاد في علم من العلوم، خلال شهر أو عام، شيئا يعتدّ به في ذلك العلم، وليس ذلك ممكنا في علم البلاغة؛ إذ أكثر ما يستحسن ويستقبح في علم البلاغة له اعتبارات شتى بحسب المواضع، فالبلاغة –كما قال- علم كلي، يقتضي ضبطه الإحاطة بعلوم اللسان وعلوم الإنسان المختلفة المتدخلة في تكوين الذات المنتجة للخطاب.

ولا تطرح كلمة البلاغة في السياق العربي إشكالا في كونها علم الخطاب الاجتماعي بنوعييه التخييلي والتداولي، وذلك نتيجة الدمج الذي مارسه في المرحلة الثانية من تاريخ البلاغة العربية كل من عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، ثم السكاكي وحازم القرطاجني، وذلك بعد المحاولة التلفيقية التي قام بها العسكري في كتاب "الصناعتين". فبالرغم مما أدت إليه هذه العملية من إقصاء واختزال أحيانا، ومن تحويل المركز أحيانا أخرى (من التخييل إلى التداول خاصة)، فقد ظل شعار الوحدة البلاغية مرفوعا.

أما في الثقافة الغربية فإن الكلمة المطابقة لكلمة (بلاغة) العربية حاليا، هي " ريطوريك Rhétorique" التي تتردد بين ثلاثة مفاهيم كبرى:

1-المفهوم الأرسطي الذي يخصصها لمجال الإقناع وآلياته في المقامات الخطابية المعروفة (المشاورة، والمشاجرة، والمفاضلة)، وهي بهذا المفهوم تقابل "بُوييتيك Poétique" التي تُعنى وتهتم بالخطاب المحاكي المخيل أي الشعر حصرا. وهذا هو المفهوم الذي أعاد "بيرلمان" وآخرون صياغته في اتجاه بناء نموذج منطقي للإقناع.

2-المفهوم الأدبي الذي يجعلها بحثا في صور الأسلوب، وهذا المفهوم الذي استقر لها عبر تاريخ من الانكماش، رسم "رولان بارث" خطوطه العامة في محاضراته المشهورة عن تاريخ البلاغة القديمة، وقد أعيدت صياغة هذا الاتجاه حديثا باعتباره بلاغة عامة أحيانا.

3-المفهوم النسقي الذي يسعى لجعل البلاغة علما أعلى يشمل التخييل والحجاج معا، أي يستوعب المفهومين الأولين من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها، موسعا هذه المنطقة أقصى ما يمكن التوسيع، فقد حدث خلال التاريخ أن تقلص البعد الفلسفي التداولي للبلاغة، وتوسع البعد الأسلوبي حيث صار الموضوع الوحيد لها، فكانت نهضة البلاغة حديثا منصبّة على استرجاع البعد المفقود في تجاذب بين المجال الأدبي (حيث يهيمن التخييل)، والمجال الفلسفي المنطقي واللساني (حيث يهيمن التداول).

2-أساس النسق البلاغي:

الحديث عن علم للتخييل والتداول باعتبارهما خطابين يتجهان نحو قطبين متباعدين يقتضي بيان العنصر الجوهري الذي يجمعهما، ومدى الإنتاجية الإضافية المترتبة عن الجمع، فضلا عن الحاجة إلى ضبط الحدود مع الجوار المعرفي (المنطق والفلسفة واللسانيات).

ولا يختلف المدافعون عن النسق البلاغي العام مع المرتابين في إمكانية قيامه في أن التخييل والتداول (أو الحجاج بشكل أدق)، يلتقيان في أنهما خطابان قائمان على الاحتمال؛ الاحتمال توهيما أو ترجيحا، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي. فحتى تفريق "أرسطو" لا يعدو جهة الاحتمال وجودا أو عدما؛ فخطاب الشاعر "كذب" محتمل الصدق، وكلام الخطيب "صدق" محتمل الكذب. ومع ذلك فمن الدارسين من رجح الخصوصيات النوعية لكل جنس ففَصَلَ، ومنهم من رأى أن منطقة الاتصال واسعة بشكل يجعلها كافية لقيام علم عام للشعرية والخطابية هو علم البلاغة.

3-التخييل والتداول في مسار البلاغة العربية:

إن أول تفكير في اللغة كان تفكيرا بلاغيا، فقد ظهرت الملاحظات الأسلوبية قبل ظهور العروض والنحو والمنطق، كما روي من تاريخ تلقي الشعر العربي في عصر الجاهلية وصدر الإسلام، أي قبل ظهور المصطلح البلاغي كنسق لعلم. وكان من مظاهر هذا التفكير ربط الشعر بالعوالم غير العادية: بالجن والشياطين، والتنبيه إلى العيوب الإيقاعية والحجاجية فيه. كانت هذه الملاحظات هي المصدر الأول للبلاغة العربية حيث جُمعت لاحقا تحت اسم البديع ومحاسن الكلام. وقد تطور هذا المسار من خلال الخصومات حول ما هو بديع وما ليس كذلك.

أما المسار الثاني فكان لاحقا بالأول، حيث ارتبط بتقعيد اللغة من جهة وبيان الانسجام الخطابي للنص القرآني، وما أثير حول ذلك من إشكالات اقتضى التحاور حولها الاستعانة بالمنطق اليوناني والبلاغة الأرسطية. ومفاتيح هذا الموضوع "غريب القرآن" و "مجازاته" و "الكلام" حول الذات والصفات حيث يتدخل عالم المطلق (الله) وعالم النسبي (الإنسان).

ففي هذا السياق الفكري اللغوي المنطقي ظهر الطموح إلى صياغة نظرية عامة للفهم والإفهام أو للبيان والتبيين، وهذا هو الصدر الثاني الكبير للبلاغة العربية الذي ظهر الجاحظ رائدا فيه، وهو الذي انتبه إلى أن اللغوي لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يحاجج في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعن بعلم الكلام. وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني، وهو مركز التأويل القادر على ردم الهوة بين مستويات الخطاب في الحقيقة والمجاز، وكان من ثمار هذا التوجه ظهور علم المناظرة والجدال.

وعلى هذا فللبلاغة العربية مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة. ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته. ومن العوامل الملموسة التي عقّدت المهمة النظرية في هذا المجال البحث عن بلاغة القرآن من خلال الشعر العربي، ذلك السراب الذي جرى خلفه الأشاعرة وتخلص منه بعض المعتزلة بالقول بالصرفة.

والنموذج الأمثل للاضطراب في هذا المضمار المسيرة الطويلة لعبد القاهر الجرجاني بحثا عن الخصيصة البلاغية من خلال الشعر والقرآن في آن، فقد أدى به الأمر منذ المنطلق إلى اختزال البلاغة في التحويل الدلالي القائم على الإلحاق والإبدال عن طريق المشابهة والمجاز مستعينا بالقراءة العربية

لنظرية المحاكاة الأرسطية. غير أن استحضار النص القرآني جعله يقلص التخييل إلى درجة تفقده معناه المولد لكل الصور، خلاف ما عليه حال المحاكاة التي جاء منها، بل جعله يستأنف المسيرة في كتاب الدلائل من منطلق مغاير هو منطلق النحو (النظم)، ويحيل كل ما اعتبره أسرار بلاغة إلى عنصر مساعد أو مشارك في أقصى الأحوال.

لقد انتقل الجرجاني من الغرابة الشعرية (أي من التخييل) إلى المناسبة المقامية أو السياقية (أي إلى تداولية لسانية)، وهذا ما فعله السكاكي إذ جعل مركز البلاغة في التراكيب والمقاصد (علم المعاني) وامتدادها في التحويلات الدلالية (علم البيان)، وجعل ما أقصاه الجرجاني (الأصوات) أو أهمله (المقابلات الدلالية) في هامش البلاغة (علم البديع). وفي غياب النظر الفلسفي المنطقي انزوى علم المعاني أو البعد التداولي في هامش النحو وهيمنت عليه مصطلحاته ومفاهيمه.

لقد بذل الفلاسفة العرب في إطار قراءتهم لعمل أرسطو في الشعر والخطابة جهدا محمودا لبيان الخصوصية الشعرية (التخييل) والخصوصية الخطابية (التصديق)، وما بينهما من التداخل والتخارج، غير أن هيمنة الخلفيات الدينية وتراجع الحضارة الإسلامية حلا دون استثمار هذا التراث في مجال البلاغة تنظيرا وتطبيقا. ولعل المحاولة التنظيرية الوحيدة الجادة في هذا المجال هي التي بذلها حازم القرطاجني، بالرغم من أن محاولته ظلت في حاجة إلى كثير من التهذيب والتكميل والتمثيل، الشيء الذي لم يكن ممكنا في ذلك المسار الحضاري المتردي.

4-التوجه الحجاجي المنطقي:

يعد كتاب "بيرلمان" و "تيتيكا" (مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة) من أهم الكتب التي سعت إلى ضبط العلاقة بين الحجاج والبلاغة، هذه العلاقة تأخذ مسارين اثنين هما:

أ/ الحجاج هو البلاغة الجديدة.

ب/ الحجاج جزء من البلاغة الجديدة.

وإذا ما وُضع ذلك الكتاب في السياق المعرفي العام، جاز ترجيح المسار الأول: الحجاج هو البلاغة الجديدة، إذ ما ليس حجاجا بالمعنى الذي يرتضيه مؤلفا الكتاب السابق سينتمي إلى أحد القطبين: السفسطة أو البرهان.

وقد حاول بيرلمان إثبات عجز المنطق الصوري والفلسفة الوضعية في المجال القيمي بقدر ما حرص على إبعاد الأحكام الانفعالية والاعتباطية عن البلاغة، فهي صالحة عنده لأن تكون منطقا لأحكام القيمة، أي للفلسفة، على شرط التخلي عن التعارض التبسيطي بين منطق مختزل في البرهنة الشكلية وبلاغة مختزلة في إجراءات إقناعية غير عقلية. وباختصار الفلسفة يمكن أن تظل عقلية حتى وهي تؤسس أحكامها القيمية على البلاغة.

يقول بيرلمان: "إن نظرية للحجاج من هذا القبيل توجه الذهن –حين النظر إلى موضوعها- إلى البلاغة القديمة، ولكنني إذ أعالجها من زاوية هموم عالم المنطق سأضطر لتقليص مباحثي من جانب وتوسيعها من جانب آخر". ومن الجوانب التي تتضمن توسيعا وتضييقا في الوقت نفسه المتن (أو المدونة)، حيث يتم إهمال خصوصيات الخطاب الشفوي، واستيعاب الخطاب المكتوب اقتصارا على الحجج المقنعة فيهما معا الموصلة إلى الإذعان. ويكمن وراء هذا الإجراء عدم إيلاء أهمية كبيرة للمحافل الخطابية في مقابل الامتداد إلى المحاججة الخاصة، مع شخص واحد أو حتى مع الذات، يتداول المرء مع نفسه حول الـ (مَعَ) و (الضِدّ) لاختبار مدى قيمة أطروحة وصلابة حجة.

وبهذا التوجه تقترب نظرية الحجاج الحديثة من مبحث الجدل أكثر من قربها من مبحث البلاغة ببعديها الشعري والتداولي، وذلك بالرغم من اختيار الانتماء لما سمي بلاغة جديدة. يقول بيرلمان: "من هنا احتلت الطوبيقات الأرسطية (باعتبارها صياغة للجدل السوقراطي القائم على السؤال والجواب والنقد والدحض) حيزا من النظرية الفلسفية للحجاج. فمن الملاحظ أن فن الحجاج (كما نما وتطور مع جورجياس، وبروطاغوراس، وزينون) يهتم دائما بإحداث التسليم بأطروحات توجد في حالة تعارض"، فيقوى هذا التسليم أو ينقص من قوته بواسطة حجج متنوعة، إذ يعتمد التأثير على الشخص في كُليته ليدفعه نحو الفعل، ففي الحجاج لا يفرق بين الإرادة والفعل، ولا بين النظرية والتطبيق.